

تلفت الانتباه، أكثر من أي شيء آخر بسبب استمرارها طيلة خمس عشرة سنة مضت، هي الارتفاع الشديد في عدد العاملين الذين يتعرضون إلى الاعتقال قبل تنفيذ أي عمل عسكري اطلاقاً، يقابلهم العدد اليسير للذين ينجحون في القيام بأكثر من عملتهم الأولى. فشهد العمل السري نسبة تقلب مرتفعة جداً في العنصر البشري ولم يحتفظ بالعناصر المخضمة.

نجم هذا الوضع، على ما يبدو، عن السعي الدائم لسلوك الطريق الاقصر، حيث أراد الطرف الفلسطيني أن يحقق أهدافاً سياسية أنية مما تطلب الرمي بالعناصر البشرية المتوفرة اعتبارياً في الميدان للقيام بعمل عسكري فوري، بغض النظر عن حقيقة الامكانيات والظروف الميدانية. فتعرض عاملو الداخل إلى معدل استنزاف أعلى من اللازم بسبب اضطرارهم إلى القيام بحجم من النشاط لم يكونوا مهيين له تنظيمياً وتدريبياً. وكلما فقدت حركة المقاومة في الداخل العناصر المدربة، كلما اضطرت إلى اللجوء إلى عناصر جديدة «طازجة» غير مجربة لا تتمتع سوى بحماسها وإخلاصها وليس بخبرتها وقدراتها الفنية. وبسبب ذلك وجدت القيادة الفلسطينية نفسها في مأزق تمثل مخرجه الوحيد في اعتماد الصبر في بناء الافراد الكفؤين، ضمن اختصاصات متنوعة، للقيام بعمل عسكري متقدم نوعياً يتمتع بالاستمرارية ويأتي بالردود السياسي - المعنوي على المدى الأطول. غير أنه لا يبدو أن أي تنظيم فلسطيني قد سلك هذا البديل، لأن الجميع يبحثون عن تسجيل «النقاط السياسية»، ولأن أحداً لم يمتلك رؤية سياسية بعيدة المدى يبني لأجلها اصلاً. ويفسر ما سبق الصفة الموسمية للنشاط العسكري الفلسطيني في الارض المحتلة، بل ويفسر الصفة الموسمية لكل اوجه النشاط الفلسطيني في الداخل التي تدار من الخارج مما منع بناء استراتيجية منظمة للمقاومة المدنية أيضاً، حيث عجزت حركة المقاومة عن بناء عمل عسكري - تنظيمي دؤوب يكتسب صفة الاستمرارية من جهة، ولم تنتفض بحماس، من الجهة الأخرى، لتقدم الامكانيات المالية السخية لتنفيذ العمليات بقدر اندفاعها حين أرادت اثبات الوجود بمناسبة سياسية معينة.

وإنه لمن الملفت للانتباه أن الهدف السياسي الذي كانت القيادة الفلسطينية تسعى الى تحقيقه بواسطة فورة العمليات العسكرية او الانتفاضات الشعبية في الداخل، غالباً ما كان يتعلق بتطورات سياسية - دبلوماسية خارج الارض المحتلة، وقلما ارتبط بالتأثير على فلسطيني الداخل أو حتى على الاسرائيليين. إن الغريب في الأمر، أيضاً، هو أن القيادة الفلسطينية لم تع، على ما يبدو، أن وجود أداة عسكرية أو سياسية منظمة فاعلة على شكل تنظيم سري أو جماهير مندفعة جاهزة للتحرك عند «كبسة زر» حسب رؤية القيادة العليا للأولويات، يعتمد على خلق وبناء وصيانة العمل السري المنظم بنفس الاتقان والتفاني الذي تتطلبه استراتيجية الحرب المطلقة ضد الاحتلال. وقد أدى منهج حركة المقاومة، الساعي إلى تحقيق المكاسب السريعة حتى لو تطلب ذلك استهلاك عناصر العمل المستقبلي وعدم ترك أي احتياط (بكلمة أخرى، مراعاة المستقبل على مكسب فوري في الحاضر كما يفعل المقامر)، إلى فقدان الكوادر المخضمة وغياب العناصر القيادية القادرة على إدارة العمل من الداخل ومحاولة معالجة الأمور بالمال، مما أدى، نهاية، إلى تراجع دور العمل المنظم في الارض المحتلة الذي يُدار من الخارج.

ويلاحظ أن العمل العسكري في الارض المحتلة يسلك اتجاهات جديدة في الآونة الأخيرة،